ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

إشكالية تدبير ندرة الماء بالمدينة المغربية الوسيطية

أبو العلا المصطفى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض
مراكش – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

واجهت مراكش إبان فترة تأسيسها أزمة حادة تتعلق بتزويد ساكنتها بالموارد المائية الكافية، وخاصة من أجل سقي البساتين والجنات التي ضمتها المدينة أو كانت بمحاذاتها، ومن أجل ذلك فقد سخرت مختلف إمكانياتها بغية توفير ما يلزم من هذا المورد النفيس. لقد انتقلت مراكش من مرحلة الخصاص والشح اللذان انعكسا على نوعية نباتها الذي كان السدر والحنظل، إلى مرحلة الوفرة والفيض، فتحول بذلك المشهد العام للمدينة وصارت قبلة للسكان بعد أن كانت خلاء موحشًا يطير الطير فوقها ويسقط من شدة العطش. وذلك بفضل تسخير تقنيات ووسائل مختلفة، برهنت من خلالها المدينة على قدرتها في تطويع المجال الذي صار أخضرًا يانعًا يوفر الحاجات الضرورية لعيش السكان. وقد توصلت الدراسة إلى أن شح المعطيات من داخل النصوص التاريخية من ناحية، وغموضها في أحايين أخرى، يخلق إشكالات عميقة تحول دون الإجابة على العديد من التساؤلات، والتي تدفع الباحث إلى تقديم اجتهادات وقراءات تبقى منطقية بالنظر إلى ما هو موجود بين ثنايا المصادر. ولعلى التأريخ للتقنيات الهيدروليكية بالمغرب، أحد أبرز الإشكالات التي تسعفنا النصوص في وضع إطارًا معرفيًا متكاملاً عنها، الأمر الذي استغله المستشرقون من أجل وضع استنتاجات تنفي بأن يكون لسكان المغرب أي معرفة بها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٣	يوليو	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٦	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الدولة المرابطية؛ الموارد المائية؛ الآبار؛ السواقي؛ مراكش

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.296950

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أبو العلا المصطفى، "إشكالية تدبير ندرة الماء بالمدينة المغربية الوسيطية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٥٤ – ٦١.

Corresponding author: elmustapha0505gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

لا شك أن إشكالية تدبير الموارد المائية أصبحت تفرض نفسها اليوم على مختلف بلدان العالم، وخاصة منها التي توجد في رقع جغرافية تتسم بالندرة الناتجة عن قلة التساقطات أو جراء الاستنزاف المفرط للفرشات المائية بفعل الضغط الزراعي. وأمام هذا الوضع فإننا بحاجة ماسة إلى الاستفادة من مختلف التجارب الإنسانية والتي تمحورت حول طرق مواجهة الخصاص المائي.

وكما كانت لنا في التاريخ عبرة على مر العصور، فإن طرق تدبير المياه في المناطق الجافة موضوع سبقنا إليه أجدادنا، فسطروا لنا إبداعات غاية في الروعة والدقة جعلتهم يطوعون الطبيعة ويجعلوها في خدمة حاجياتهم. ونحن اليوم في حاجة ماسة إلى الرجوع إلى هذه التجارب والنهل منها ليس من أجل رواية التاريخ فحسب وإنما من أجل العمل على الاستفادة منها ومحاولة النسج على منوالها بغية الخروج من الأزمات المائية التي نعاني منها اليوم والتي من المحتمل جدا أن تشكل خطرا يتهدد الملايين من بني البشر في القادم من السنين.

إن الأزمات المائية لا ترتبط وفقط بتلك الأوقات التي تعرف فيها الموارد المائية شحا كبيرا لسبب من الأسباب والتي تكون فيها المدينة قد قطعت أشواطًا مهمة في طور العمران والتعمير، وبالتالي تكون المدينة مرغمة بالبحث عن حلول مؤقتة أو دائمة بغية إبطال مفعول الأزمة. لكن المدينة المغربية عرفت أزمات من نوع آخر، ارتبطت بشكل أساس بفترة النشأة والبناء. فمباشرة مع وضع أولى اللبنات ستطرح أمام بناة المدينة إشكالية ندرة المياه في موضع التأسيس، الأمر الذي شكل لهم عائقا في سبيل إتمام مشروع البناء.

انطلاقًا مما سبق تبدو محاولتنا هاته محفوفة بالصعوبات، وذلك بحكم غياب الحديث بشكل مباشر وصريح عن إشكالية ندرة الماء التي صادفتها المدينة الوسيطية، ذلك أن النصوص التاريخية لم يكن في حسبان أصحابها التطرق لهذه الإشكالية، باستثناء بعض الإشارات المتفرقة وربما غير المقصودة أحيانا. وذلك ليس بجديد عن المصادر المغربية والتي ألف الباحث في مضانها أن يكون ما توفره لا يرقى إلى الإجابة عن كافة التساؤلات التي يطرحها. يمكن القول بأن هذه الأزمات المراد الحديث عنها هنا تدخل في نطاق القاعدة العامة الموسومة بالتحدي والاستجابة، ذلك أن هذه المدن وضعت نفسها بنفسها في موقف شكل لها تحديا استجابت له بالبحث عن حلول. وهو ما سنسعى إلى الكشف عنه من خلال أنموذج مدينة مراكش المرابطية وذلك عن طريق الإجابة على التساؤل التالي:

كيف تعاملت مراكش مع إشكالية توفير الموارد المائية؟ وماهي الوسائل التي سخرتها في ذلك؟

لقد واجهت أغلب المدن المغربية المنشأة في الفترة الوسيطية إشكالات عديدة تتعلق بمصادر التزود بالماء وطرق استغلاله ووسائل نقله وتوزيعه. وتعتبر مدينة مراكش زمن المرابطين أنموذجًا صريحًا لهذه المدن، ذلك أنها وجدت نفسها في خضم أزمة تتعلق بتوفير الموارد المائية اللازمة، بحكم موقعها الجغرافي الذي يفتقر للمجاري المائية الكفيلة بتزويدها بحاجياتها الأساسية من الماء، مما أجبرها على التفكير في اعتماد وسائل وتقنيات من أجل الخروج من هذه الأزمة.

اعتبرت النصوص توفر الماء بموضع تأسيس مراكش شرطًا ثانويًا،(١) بل وعنصر تخوف طبيعي بالنسبة للمرابطين، فقد أشارت إلى أن هؤلاء لا يرغبون في الاستقرار بالقرب من المجاري المائية نظرًا للطبيعة الصحراوية للعصبية الصنهاجية "ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع [الأمير أبو بكر بن عمر] لهم من ذلك وقال: نحن أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكن على الوادي."(٢) وكذلك نظرا لما يحمله ذلك من خطر محدق بسبب الفيضان المتكرر لوادي تانسيفت.(٣)

تجمع المصادر على أن بناء مراكش قد تم فوق أرض جرداء لا نبات فيها،(٤) وتجعلنا هذه النصوص نستشف تخوفا وتوجسا واضحين لمؤسسي مراكش من الماء، فالفئة التي أوكل لها اختيار المكان اعتبرت أن أول معطى إيجابي في الموضع المختار هو كونه صحراء لا نبات فيها،(٥) في حين ذهب البعض إلى تفضيل موضع آخر بالقرب من الوادي،(٦) غير أن الفئة الأولى كانت تدري باستحالة اختياره من طرف الأمير (أبو بكر بن عمر اللمتوني)، الذي تورد النصوص على أنه يستكره هذا الاختيار بحكم تخوفه على الماشية من فيضانات الوادي.(٧)

إن ما تقدمه هذه النصوص يثير الشكوك، فإذا كان اختيار موضع مراكش بحكم بعده على الوادي، بسبب الخوف من هلاك المواشي، فإن الموضع لم يكن فعلا بذلك البعد، فواد (إغزر/إيسيل) يبقى قريبا مقارنة بواد تانسيفت، ثم إذا كان الاختيار مبعثه التخوف على المواشي فلماذا الاستقرار في بادئ الأمر بأغمات التي تعرف وجود مجرى مائي يمر من وسط المدينة؟

وما يثير الاستغراب هو غياب شبه تام لهذه المواشي بعد تأسيس مراكش، حيث نرصد تحولا واضحا في طبيعة المعاش للملثمين الذين أنشأوا الجنات والبساتين وتحولوا بذلك إلى فلاحين عوض رعاة. وهو ما لمحت له النصوص حتى قبل البناء، حيث بيّن من تكلف باختيار الموضع أن هذا الأخير يمتاز بقربه من بساتين (نفيس) وسهول دكالة،[٨] ما يدل على أن هناك نية مبيتة لاعتماد نمط الفلاحة والاستقرار عوض الرعي والترحال اللذين يتناقضان مع مبادئ التمدن والتحضر.

يمكن القول بأن نظرة مؤسسي مراكش لاختيار موضع المدينة قد تحكمت فيه بشكل أساس الاعتبارات السياسية والأمنية، ونخص بالذكر التحكم في جبال درن باعتبارها موطن العصبية المصمودية،[٩] ثم القرب من الصحراء وسهولة التنقل منها وإليها باعتبارها موطن العصبية الصنهاجية المكون الرئيس للدولة المرابطية،[١٠] بالإضافة إلى التحكم في الطرق الرئيسية الرابطة بين الشمال والجنوب وبالأخص التحكم في طريق الذهب. لكن هذا الاختيار وضع المدينة في أزمة مائية ستنكشف خيوطها مع وضع اللبنات الأولى للتأسيس.

المصادر المائية لمراكش زمن المرابطين

١-الآبار

إن اختيار موضع المدينة بعيدا عن الأنهار، خاصة تانسيفت بالنظر لأهميته، بث نوعا من الخوف في نفوس الناس ولم يحفزهم على الاستقرار بها، الأمر الذي دفعهم إلى البحث عن مصادر مياه بديلة (الآبار في بادئ الأمر) قبل الشروع في سكناها، وهو ما أشار إليه نص (ابن أبي زرع): " فحفر الناس بها الآبار وخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس."[١١]

أشارت أغلب المصادر إلى أنه رغم كون موقع مراكش كان عبارة عن صحراء لا تنبث إلا السدر والحنظل،[١٢] إلا أن مياهها كانت شديدة القرب إلى السطح، وقد اكتشف ذلك بعد قيام بناة المدينة على حفر أولى الآبار.[١٣] فكانت بذلك الآبار أولى المصادر المائية التي اعتمدتها المدينة من أجل تغطية حاجياتها من الماء، وخاصة مياه الشروب. أما السقي فيبدو أنه كان غير متاح بشكل كبير الأمر الذي يعكسه قلة عدد البساتين التي لم تبدأ بالانتشار إلا بعد استخدام تقنيات أخرى.[١٤]

يبدو أن عامل قرب الماء من السطح وفر كميات مهمة من المياه سهلت على المرابطين عملية البناء إلى جانب توفر أحجار جبل إيجليز،[١٥] مما جعل الآبار الوسيلة الأولى التي وظفت في بداية عمران المدينة كمصدر للتزود بالماء، الأمر الذي شجع الناس على الاستقرار بها.[١٦] فهل كان ذلك مجرد صدفة أم أن الجهة التي أوكل لها اختيار الموضع كانت على دراية بذلك؟ سؤال لا تسعفنا النصوص على الإجابة عليه.

٢-السواقي

إذا كانت أغلب المصادر التي أشرنا إليها أعلاه قد ربطت بين الآبار وقرب مائها من السطح وإقبال الناس على الاستقرار بمراكش، فإنها ربطت بين سقي البساتين واستنباط الماء أو جلبه من خارج المدينة. ومن بين الإشارات التي رصدت ذلك ما أورده (ابن سعيد المغربي) في وصفه لمراكش بقوله: " بناها يوسف... في أرض صحراوية، وجلب إليها الماء،[١٧] وأكثر الناس فيها البساتين."[١٨] نفس الأمر نجده عند (الشريف الإدريسي) الذي ربط بين انتشار البساتين وانتشار تقنية السقي التي استنبطها المهندس (عبيد الله بن يونس).

إن هذا المهندس جاء إلى مراكش في صدر[١٩] بنائها ولم يكن بها سوى بستان واحد، فابتكر تقنية لجلب المياه إلى البساتين يصفها (الإدريسي) قائلاً: "فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب على وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يفتر."[٢٠]

إن استدعاء المهندسين من الأندلس يجعلنا نستنتج أن المدينة واجهتها صعوبات في عملية التزود بالماء، وخاصة من أجل توفير اللازم منه لسقي الجنات والبساتين، في ظل التوسع العمراني والارتفاع السكاني الذي من المنطقي أن تعرفه عاصمة جديدة كانت منطلق الدولة من أجل بسط سيطرتها على بلاد المغرب والأندلس، وما يتطلبه ذلك من تجيش الجيوش وتوفير الغذاء الكافي لها.

لقد انطلق العديد من الباحثين[٢١] من نص (الإدريسي) أعلاه من أجل التأريخ لتقنية الخطارة بالمجال المراكشي، ونعتقد أن ذلك كان مغامرة كبيرة منهم. فالنص ليس بذلك الوضوح الكافي من أجل الركون إليه لوحده بغية استنتاج نوعية التقنية التي يتحدث عنها صاحب النص. فإذا كان (الإدريسي) يتحدث عن تقنية الخطارة فلماذا لم يوظف هذا المصطلح بشكل مباشر، في حين استخدمه في موضع آخر سابق من نفس الكتاب؟ وذلك عند حديثه عن بعض مدن (فزان) حيث قال واصفا بعض المنتوجات الزراعية لسكان المنطقة " ويزرعون الذرة والشعير ويسقونهما بالماء... بآلات تسمى أنجفة وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة."[٢٢]

إذن يبدو أن الإدريسي كان عارفا بالمصطلح "خطارة" لكن عدم توظيفه عند حديثه عن التقنية التي استخدمها المهندس (عبيد الله بن يونس) يطرح عدة تساؤلات. فهل ما سماه (الإدريسي) "خطارة" كان فعلا خطارة كما نعرفها اليوم؟ خاصة وأنه وظف عبارة " آلة"، وهذا المصطلح هو قريب من البعد الميكانيكي عكس تقنية الخطارة ذات البعد الطبيعي المعتمد على الطبوغرافية. فهل كان يقصد بالخطارة وسيلة أخرى مثل آلة الدولاب؟ خاصة وأنه أشار مباشرة بعد ذلك إلى وجود معدن الفضة الذي يستخرجه السكان من جبل قريب، ونحن نعلم أن المناجم الوسيطية وظفت بشكل كبير هذه التقنية إلى جانب الخطارة في بعض الأحيان من أجل استخراج المياه الموجودة في المناجم.(٢٣)

كل هذه الأسئلة لا نجد لها اليوم إجابات شافية، ليبقى النص المنطلق الشاهد الوحيد الذي يمكن توظيفه لاستكناه نوعية التقنية التي وصفها (الإدريسي) ولم يعط لها اسما. والتي نعتقد أنها تقنية السواقي، وذلك بحكم مجموعة من المصطلحات الموظفة في النص والتي تجعلنا ننفي أن يكون قصد النص هو الخطارة:

- العبارة الأولى هي كلمة "ساقية.. على وجه الأرض" فمعناها واضح لا يحتاج إلى كثير اجتهاد، وإن كانت الخطارة تعتمد في ربط آبارها التحت أرضية على قناة، فإن ذلك لم يلمح إليه النص الذي تحدث عن بئرا واحدة وليس مجموعة آبار، في حين نجد أن (صاحب الإستبصار) الذي عاصر بداية العهد الموحدي والذي في الغالب عاين تقنية الخطارة عن كثب فتحدث عنها قائلا، " وبساتينها تسقى من أبار منتفذ بعضها ببعض حتى تخرج على وجه الأرض".(٢٤)
- بالإضافة كذلك إلى عبارة "منسكب على وجه الأرض" وهو كلام بعيد كل البعد عن خاصية الخطارة التي تنقل الماء تحت الأرض وليس على وجهها.

ويدعم قولنا نص أخر ل(الإدريسي) والذي يقول فيه: "ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالون يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها."(٢٥) ونعتقد أن هذا النص لا يحمل بين طياته أي إشارة لتقنية الخطارة، فهذه التقنية تحتاج مواردًا مهمة ويدًا عاملة مؤهلة وبحجم كبير من أجل تفعيلها،(٢٦) وهو ما لا يمكن تحققه سوى من طرف الدولة، في حين أن النص يشير إلى "الناس" بمعنى أن الأمر كان بإمكان الجميع وليس حكرا على جهة معينة، وهذه الإمكانية هي التي ساهمت في الرفع من عدد البساتين في المدينة ومحيطها، بعد أن كانت تتوفر على بستان واحد في ملك شخص قريب من أمير المسلمين أنداك (علي بن يوسف)، وبعد أن كان الطائر يسقط فوقها من شدة العطش والرمضاء.(٢٧)

يعتبر نص (وصف إفريقيا)(٢٨) الوحيد الذي ربط بين الخطارة والفترة المرابطية، لكنه حدد مصدرها في (أغمات) في حين نجد نص (الإدريسي) يتحدث بشكل صريح على أن (عبيد الله بن يونس) استخرج الماء من " أعلى البستان" وبالتالي فهو يتحدث عن بستان بمراكش، ولم يتحدث عن ذهاب المهندس إلى (أغمات) من أجل تطبيق تقنيته.

هذا القول الذي دهبنا إليه لا نقصد منه غياب تقنية الخطارات عن مراكش المرابطية، وإنما أردنا منه إثبات أن الدولة المرابطية في عهدها ارتبطت البساتين بتقنية السواقي أولا، لكن يبدو أنها كانت موظفة بشكل هندسي دقيق ومتقن،(٢٩) قبل أن تعتمد تقنية الخطارات، والتي من المرجح جدا أن يكون (عبيد الله بن يونس) هو نفسه الذي عمل على استنباطها في هذه الفترة.(٣٠)

٣- الخطارات

كما أشرنا إلى ذلك سابقًا بأن مراكش إبان العهد المرابطي اعتمدت بشكل كبير على تقنية السواقي خاصة من أجل سقي البساتين، ورغم أننا رجحنا أن يكون المهندس (عبيد الله بن يونس) قد يكون أول من اعتمد تقنية الخطارات في مراكش، إلا أننا لا نتوفر على نص يؤكد ذلك، وما تنقله لنا النصوص هو حديث عام عن الخطارات، في غالب الظن أنها في العهد الموحدي، بحكم معاصرة كتاب هذه النصوص لهذا العصر، ونذكر هنا على سبيل المثال نص (صاحب الاستبصار)، الذي أشرنا إليه سابقا،(٣١) فهل يكون هذا الصمت الذي نحت إليه المصادر مقصودا؟ بحكم أن مجموعة من المدن نهجت سياسة إخفاء مصادر مياهها لدواعي أمنية، وخاصة تلك التي تكون منابعها خارج المدينة، كحالة مدينتي طنجة وزلول شرق أصيلا.(٣٢)

صمت من المحتمل أن تكون النصوص حدت حدوه بالنسبة لمراكش خاصة في العهد المرابطي، الذي تبلورت فيه فكرة جلب الماء من خارج المدينة إبان عهد علي بن يوسف، وذلك في ظل سيطرة العصبية المصمودية على جبال درن، حيث تنبع أغلب وأهم المجاري المائية بالمنطقة. ومن بين النصوص القليلة التي تكلمت عن هذا الأمر نجد نصا أخر ل(الإدريسي)،

حيث يقول: "وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ولم يستتم ذلك فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر."(٣٣)

إذا كان هذا النص يبرز اهتمام المرابطين بجلب الماء من خارج المدينة، فإنه يحمل بين سطوره غموضا يبرز من خلال كلمتين متناقضتين، هما عبارة "جلب" وعبارة "لم يستتم"، فمعنى الأولى يوحي باستكمال عملية نقل الماء، فهي تدل على التمام والانتهاء، بينما العبارة الثانية تصرح بأن العملية لم تنته، وأن المصامدة هم من أشرفوا على استكمال عملية الجلب. فأي المعنيين نصدق؟ أم أن الإدريسي كان بصدد الحديث عن مشروعين اثنين، أحدهما انتهى فعلا في عهد (علي بن يوسف) ومشروع أخر نفذه الموحدون؟(٣٤) في حين استنتج أحد الباحثين أن (علي بن يوسف) تخلى عن فكرة جلب الماء من خارج المدينة بعد استقدامه للمهندس (عبيد الله بن يونس) الذي عمل على استنباط الماء من الفرشات المائية المجاورة لمراكش.(٣٥)

إن الإشارة إلى استعمال الخطارة الذي قد يكون تم في العهد المرابطي، قد جاء في نص متأخر أورده (الحسن الوزان) "ويؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض.. وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، فدخل بعض الأشخاص إلى القناة... ولما قطعوا بعض المسافة أحسوا بهبوب رياح شديدة أطفأت مشاعلهم... وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع ... حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم... ويقول المؤرخون إن الملك الذي أسس مراكش توقع بفضل معطيات بعض المنجمين أنه سيخوض معارك كثيرة فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق في تلك القناة حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى المدينة فلا يستطيع أن يقطع عنها."(٣٦)

يتضح أن (الوزان) يتحدث فعلاً عن تقنية الخطارة، غير أن توظيفه لعبارة "يؤكدون" تدل على أنه لم يعاين الأمر بشكل شخصي، وإنما وصل إلى مسامعه، مما يجعلنا لا نطمئن لهذه الرواية خاصة وأن المسافة الزمنية الفاصلة بين الدولة المرابطية ومجيئه إلى مراكش تعتبر مدة طويلة جدا. وحتى عند حديثه عن كون مؤسس مراكش هو الذي أنشأ هذه الخطارة لم يشر إلى مصدر المعلومة، وبالتالي يصبح تصديق كونها تمت في عهد المرابطين أمرًا صعبًا.

وعلى النقيض مما نقله (الوزان) هناك نصوصا أخرى أكثر قربا من العصر الموحدي ذكرت أن الخليفة الموحدي (عبد المؤمن) قد جلب مياها من نفس المنطقة أي بالقرب من أغمات.(٣٧) غير أن الوزان اعتبر ذلك، حسب ما نقله عن مؤرخين لم يحددهم، قد أنجزه (الملك الذي أسس مراكش)، والذي نقل إليه المنجمون أنه سيخوض حروبا طويلة ضد أعدائه، فاستعان بالسحرة من أجل إنجاز عوائق داخل القنوات التحت أرضية للخطارة، حتى يبقى أمر تزويد المدينة بالماء مضمونا وبعيدا عن كل الأخطار،(٣٨) فهل يمكن القول بأن (الوزان) يقصد بعبارة (الملك الذي أسس مراكش) الخليفة (عبد المومن) باعتبار التغيرات العديدة التي عرفتها مراكش في عهده، وبالأخص ما يتعلق بجلب الماء من أماكن بعيدة سواء إلى مراكش أو غيرها،(٣٩) أم أنه يقصد بذلك حرفيا مؤسس مراكش؟

إن التأريخ لتقنية الخطارة في المجال المراكشي بصفة خاصة والحوزي بشكل عام، خلق تضاربًا كبيرًا في الرؤى بين الباحثين،(٤٠) وإن كانت أغلب الآراء تقول بأن ذلك كان بواسطة فئات وافدة، قد تكون من الأندلس، خاصة وأن العهد المرابطي شهد استقدام مجموعة من المهندسين والصناع منها، من أجل القيام بمجموعة من الإنشاءات كبناء قنطرة واد تانسيفت.(٤١) وهنا نتساءل هل كان صعبا على المغاربة القيام بهذه المنشآت المائية، خصوصا وأن من هؤلاء الباحثين من أشار إلى كون خطارات الحوز ومراكش من تشييد (معلمين) من الجنوب المغربي.(٤٢)

فمن المنطقي ألا يكون استقدام جملة من الصناع والمهندسين فقط من أجل بناء قنطرة وحيدة، فمن الممكن جدا أن يكون هؤلاء قد ساهموا في إنجاز مجموعة من التقنيات والبناءات الأخرى والتي كانت المدينة في أمس الحاجة إليها، وخاصة ما تعلق بتزويد المدينة بحاجياتها من المياه، ليس فقط من أجل الشرب والذي من المحتمل أن يرتفع عليه الطلب بالنظر لتوافد الجيوش واتساع عملية الفتوحات، وكذلك أجل سقي البساتين والبحائر، سواء منها التي كانت خارج المدينة أو تلك التي أصبحت داخلها بعد تسويرها خلال عهد (علي بن يوسف).

بغض النظر عن أصول التقنية، ومن قام بإدخالها إلى المجال المراكشي، وعن نوعية الوسيلة المستخدمة، فإن مجموعة من النصوص أكدت أن المدينة عرفت تكاثرا في البساتين وغيرها من الحيازات الفلاحية بداية من العهد المرابطي، ف(ابن القطان) المؤرخ الموحدي ومن خلال نقله

لوقائع إحدى أهم المعارك التي دارت بين المرابطين والموحدين، ونقصد معركة (البحيرة) التي جرت في سنة ٥٢٤هـ، أشار إلى البعض منها، وما تتوفر عليه من موارد مائية مهمة، حيث قال: "فكانت المدافعات بينهم على رؤوس العيون من سواقي الرقائق فاستشهد من استشهد من الموحدين وانحاز باقيهم إلى التمنع بداخل البحيرة. وإن حفير من تلك السواقي خندقًا عظيمًا مغاره في السعة ثلاثون ذراعًا".[٤٣]

أول شيء يمكن استخلاصه من خلال هذا النص، هو تاريخ المعركة ٥٢٤هـ أي بعد تسوير مراكش الذي كان في سنة ٥٢٠هـ.[٤٤] والشيء الثاني هو اسم المكان الذي وقعت فيه المواجهة "البحيرة"، وهو الاسم الذي سيطلق عليها فيما بعد، ومن المعروف أن لفظة (البحيرة) حسب (صاحب الاستبصار) تطلق على البساتين والجنات العظيمة،[٤٥] وبمأن هذه المعركة وقعت بعد التسوير فمن البديهي أنها وقعت خارج المدينة، الأمر الذي يزكي الانتشار الواسع لمختلف أشكال البساتين والجنات داخل وخارج المدينة، والتي كان سقيها يتم بواسطة السواقي. والتي يبدو من خلال وصفها بالعميقة، أنها كانت تنقل كميات مهمة من المياه، وبالتالي نرصد بوضوح مدى التحول الكبير في وضعية المدينة من ناحية الموارد المائية التي أصبحت توظفها في مختلف الأغراض لعل أهمها عملية السقي.

خَاتِمَةٌ

ختامًا، لقد استطاعت مراكش المرابطية الخروج من أزمة الماء التي وضعت نفسها فيها، وذلك باعتماد مختلف الطرائق، بدءًا بالآبار ثم السواقي وصولاً إلى الخطارات. فتحول موضعها من صحراء لا أنيس به سوى الغزلان والنعام، ولا ينبت إلا السدر والحنظل، إلى مكان أخضر يضم مختلف أنواع الجنات والبساتين. فرغم أن مؤسسي المدينة ضربوا عرض الحائط أغلب الشروط التي وضعتها كتب أحكام البنيان، والتي كان من الواجب توفرها في موقع المدينة، وعلى رأسها توفر الماء، إلا أن مراكش استطاعت التغلب على مشكل غيابه بطرق أدت إلى خلق تحول عميق ليس في مراكش وحسب، بل في المجال الحوزي برمته.

يخلق شح المعطيات من داخل النصوص التاريخية من ناحية، وغموضها في أحايين أخرى، إشكالات عميقة تحول دون الإجابة على العديد من التساؤلات، والتي تدفع الباحث إلى تقديم اجتهادات وقراءات تبقى منطقية بالنظر إلى ما هو موجود بين ثنايا المصادر. ولعلى التأريخ للتقنيات الهيدروليكية بالمغرب، أحد أبرز الإشكالات التي تسعفنا النصوص في وضع إطارًا معرفيًا متكاملاً عنها، الأمر الذي استغله المستشرقون من أجل وضع استنتاجات تنفي بأن يكون لسكان المغرب أي معرفة بها.

لازال البحث في موضوع تاريخ الماء بالمغرب غضا ويحتاج إلى جهود مضاعفة، وتضافر جهود كافة المجالات المعرفية، في سبيل تكوين صورة تقريبية لما كانت عليه الأوضاع في الماضي، ودون ذلك لا يمكننا التعامل مع مجموعة من الإشكالات التي يطرحها موضوع الماء في وقتنا الراهن وسيطرح المزيد منها في المستقبل القريب، في ظل ارتفاع الطلب على هذه المادة الحيوية والأساسية لعيش مختلف كائنات كوكبنا الأزرق.

الاحالات المرجعية:

(١) تطرقت مجموعة من النصوص الوسيطية لقضية تأسيس مراكش، وبعضها كرر نفس الكلام عن سابقيه، انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في ختراق الآفاق**، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة ٢٠٠٢؛ مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تاريخ؛ ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣ ؛ مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، ط ١، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م ؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١ ١٩٧٠ ؛ ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢.

(٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب** ج٤، م س، ص١٩.

(٣) حسب (الشريف الإدريسي) فهذا الواد كان دائم الجريان وإذا كان الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر، انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق** م س، ص٢٣٥.

(٤) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص٢٠٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩؛ مجهول، **الحلل الموشية**، م س، ص ١٦؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، م س، ص ١٢٥؛ ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س ص١٩.

(٦) ابن عذاري المراكشي، نفسه، ص١٩.

(٧) نفس المصدر ونفس الصفحة

(٨) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩.

(٩) شكلت القبائل المصمودية الخطر الأبرز على الدولة المرابطية، فهي كما وصفها ابن خلدون "لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا. "انظر ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٦، دار الفكر، بيروت ، ٢٠٠٠، ص ٢٤٥.

(١٠) المراكشي، عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص ٢٥٧.

(١١) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩.

(١٣) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، م س، ص ٢٠٩ ; ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٤) يشير الإدريسي في معرض حديثه عن تقنية جديدة للسقي بمراكش، أدخلها المهندس (عبيد الله بن يونس) إلى أنه قبل اعتماد هذه التقنية لم يكن بمراكش سوى بستان وحيد، الأمر الذي جعلنا نرجح أن الآبار التي كانت المصدر الأساسي قبل مقدم هذا المهندس لم تكن تعتمد للسقي بشكل كبير. انظر الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م س، ص ٢٣٣.

(١٥) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م س، ص ٢٣٤.

(١٦) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٧) لا نتوفر على أي نص يدعم فكرة جلب الماء من خارج المدينة في عهد يوسف بن تاشفين.

(١٨) - ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ص١٢٥.

(١٩) أغلب الظن أنه يقصد فترة حكم (علي بن يوسف)، فحديثه عن هذا المهندس ربطه الإدريسي بهذا الخليفة، وذلك واضح من خلال قوله: "وهي [مراكش] في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير... بني منه قصر أمير المسلمين علي بن يوسف... وذلك أن الرجل المذكور وهو عبيد الله بين يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره". نزهة المشتاق، م س، ص ٢٣٣. ثم إن انشغال (يوسف بن تاشفين) بالفتوحات سواء داخل المغرب أو بالأندلس قد لا يترك له فسحة من الوقت لمثل هذه الأمور، عكس خلفه ابنه (علي بن يوسف) الذي لم تكن فترة حكمه بذلك الزخم من الفتوحات.

(٢٠) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٣.

(21) COLIN, G.S, La Noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hespéris, Tom XIV, 1er trim, 1932, p p22-60 ; Pascon, P, Le Haouz de Marrakech, tom 1, Rabat, 1977, p.375-376.

وكذلك رابطة الدين محمد، **مراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، ج١، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط٢ ص ١٨٤، ٢٠١٦.

وقد اعتبر COLIN أن نص الإدريسي أول من ذكر مصطلح الخطارة، وذلك غير دقيق، حيث سبقه إلى ذلك (البكري) الذي أورد أن أحد القصور الموجودة في الطريق بين فاس والقيروان، ويسمى بـ(قصر الزرادبة) ويعرف كذلك بالخطارة. COLIN, La Noria marocaine, p 37؛ البكري، **المغرب في بلاد المغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٤٦.

(٢٢) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص١١٢.

(٢٣) انظر العجلاوي الموساوي، **تقنيات استخراج المياه الباطنية**، م س، ص ص ١٠٣-١١٦

(٢٤) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص ٢٠٩.

(٢٥) الشريف الإدريسي، م س، ص٢٣٤.

(26) Pascon Paul, Le Haouz de Marrakech, op cit, p.110-111.

(٢٧) - مجهول، الاستبصار، م س، ص ٢١٠.

(٢٨) الوزان، حسن، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣ ص ١٣٦

(٢٩) يؤكد ذلك العبارات التي وظفها (الإدريسي): "وماؤها... مستخرج بصنعة هندسية حسنة." الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٣.

(٣٠) يرى بعض الباحثين أن الدولة المرابطية كانت عاجزة عن القيام بنفسها بأغلب المشاريع المهمة، بدءا باختيار موضع التأسيس، وجلب المياه وصولا إلى تسوير المدينة. كل ذلك قامت به العناصر الأجنبية عن العصبية الصنهاجية، عكس الدولة الموحدية التي تكلفت بنفسها بكل أمورها، انظر رابطة الدين محمد، مراكش زمن حكم الموحدين، م س، ص ١٨٧. لكن يبدو أن الأستاذ (رابطة الدين) قد أغفل فضل هذه العناصر الأجنبية على الدولة الموحدية كذلك، فهي التي قامت

بإنشاء مقصورة المسجد الجامع بمراكش بواسطة المهندس (الحاج يعيش المالقي)، والذي تكلف كذلك بالإشراف على بناء مدينة جبل الفتح (جبل طارق) دون إغفال إنجازاته بالأندلس إلى جانب المهندس (أحمد بن باسه) الذي عرف بعريف البنائين بالأندلس، وتنسب له العديد من الإنجازات سواء بالمغرب أو الأندلس. انظر: **الحلل الموشية**، م س، ص١٤٤ و١٥٥. ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧، ص ٣٧٧.

(٣١) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص ٢٠٩.

(٣٢) **طنجة**: "ماؤها مجلوب إليها في قنى من مكان بعيد لا يعلم أصله ولا يعرف من أين مجيئه، وإنما يظنون جهاته... وزلول مدينة ... في شرق أزيلي ... وشربهم كشرب أهل طنجة مجهول المبتدأ غير معلوم الأصل." ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٩٩٢. ص ٨٠.

(٣٣) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٤.

(٣٤) ما يعطي لهذا التساؤل مشروعيته هو التضارب الواضح بين النصوص، فالنص الذي أورده الإدريسي يشير إلى أن أصل المياه المجلوبة هو عين ماء بينها وبين المدينة أميال، أما نص صاحب الاستبصار فهو يرجع أصل الماء إلى أودية درن، في حين يرجعه صاحب الحلل إلى مدينة أغمات. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٣٢. مجهول، الاستبصار، ص ٢٠٩. مجهول، **الحلل الموشية**، ص ١٤٥.

(٣٥) جلاب حسن، "**من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش**"، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٦٥، يونيو-يوليوز ١٩٨٧، ص ٧٧-٨٥.

(٣٦) الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، م س، ص١٣٦.

(٣٧) مجهول، **الحلل الموشية**، م س، ص١٤٥.

(٣٨) الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ص١٣٦.

(٣٩) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص١٠٩. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، م س، ص٤٣.

(40) COLIN, G.S, La Noria marocaine, op cit, p p22-60 ; Pascon P, Le Haouz de Marrakech, Op cit, p.375-378.; Deverdun, G, Marrakech des origines à 1912, Édition Frontispice, Casablanca, p86-88.

(٤١) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص ٢٣٥.

(42) Deverdun, G, Marrakech des Origines, op cit, p 87.

(٤٣) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ، ص ١٦.

(٤٤) مجهول **الحلل الموشية**، م س، ص ٩.

(٤٥) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص٢٠٩.